ريحانة الله

«كان يحب قضاء الصيف مع أبنائه في الجبل، يرخي لهم حبل الانطلاق، دون تسيُّبٍ يجرح الأخلاق.

كان في وقاره، يبدي لهم المحبة، ويهذّبهم بين الرغبة والرهبة.

يذاكرهم القرآن ودروسهم، يسامرهم ويداعبهم ليبهج نفوسهم.

وقد يشكو من عُرامهم شكوى الأب الحكيم، ويعاقبهم عقاب المؤدِّب الرحيم. حتى إذا فتحت المدارس أبوابها، وغادروه إليها، نزلت به من غيابهم وحشة، فافتقد ما كان يشكو، وحنّ منهم حتى إلى الشغب والنصّب!!

وكم ذكر أنعُمَ اللّه، وأنهم رياحين من عطائه، وأن لا بدَّ للورود من أشواك!! وكم ذا تغنَّى بهم في شعره بين شكره وصبره»:

الراحلونَ... وعن منازلهمّ
في القلب ما بانوا ولا رحلوا[1]

(١) بانوا: بان بيناً: بَعُدَ وانفصل.

فلَذٌّ مِنَ الأكبـــاد دارجـــةٌ
تجري... فتخفقُ حولها المُقلُ
الضّـــاحكون... وكلّهم نَزَقٌ!
الصـاخـبـون.. وكلّهم جَـدَلُ!
العـابثـون... بكلٍّ مـا وجـدوا
والحـاطمـون.. إذا هُمُ حـملوا
المذنبـــون.. وليس من حَـــرَجٍ
فـلكـلٍّ ذنـبٍ عنـدهـمْ عِلَـلُ!

* * *

البـيت يسكن في ابتـعـادِهِمُ
ونظامُـــهُ.. يزهو ويكتـــملُ
فـإذا غَشَـوهُ يضجُّ من صَخَبٍ
ويكاد رُكْنُ البـيتِ ينتـقلُ[1]
كم لوّثوا بالحِـبْـر مِنْ بُسُطٍ
لا يأبهـــون بلُوَّمٍ عَـــذلوا
كم مَنْ مناضـدَ دحرجوا عبثاً
كم من وسـائدَ في الثـرى ركلوا
سُـجُفُ السـتـائر من تجـاذبهم
مـشـرومـةٌ... والذيل مُنْفَـتِلُ

(١) غشوه: غشيَ المكان غشياناً: أتاه.

وصحائفُ الكتب التي درسوا
ولفائف الحلوى التي أكلوا
كم فصّلوا... وبَنوا بها سُفُناً
دأماؤها... الأطباق والقُللُ[١]
و«الهاتف» المسكين ألْهيةٌ
لصغارهم تُزْجى به القُبَلُ[٢]

* * *

في الكَرْم من آثارهم كَرَمٌ
لم يقصدوه.. ولا به حَفِلُوا
للنمل شطرٌ من «شطائرهم»
منها يسيل الزبد والعَسَلُ
والصمغُ في الأرجاء منتشرُ
و «البزرُ» ملءُ الأرض والنُقَلُ[٣]
والحِصْرِمُ الريّانُ قد ذَبُلَتْ
حبّاتُه.. في الخَبْءِ مبتَذَلُ
يتخالسون عيونَ والدهم
«للمَزِّ» منه، وكلُّهم وَجَلُ[٤]

* * *

(١) دأماؤها: الدأماء: البحر. القُلّل: القلّة: الجرّة، وجمعها قُلل.
(٢) تزجي: أزجى الشيءَ: ساقه وأرسله.
(٣) النُقل: النُقْل: ما يتفكه به من جوز ولوز وبندق ونحوها.
(٤) للمزّ: مزّ الشراب مزّاً: مصّه.

obeikandi.com

أما الحديقةُ فهيَ ساحتهُم
فيها العصا.. والفأسُ والأسلُ[١]
يشكو الفَـرَاشُ طِرادَهُم، وله
بجناحِهِ.. من روعةٍ.. خَجلُ
و «أبو بُرَيْصٍ» لا يفـوتُهُمُ
عبثٌ به.. والنحلُ.. والجُعَلُ[٢]
وكذا الجَرادُ.. فكم مواثبةٍ
نالوا بها منه الذي أَمِلُوا

* * *

والصّيْدُ؛ كم للصّيْدِ مِنْ فُسَحٍ
ساحاتُها الأوداءُ والجبلُ[٣]
الطيرُ.. أشتاتُ منوَّعةٌ:
النسرُ.. والعصفورُ.. والحجلُ
حتّى إذا صادوا سُنُونُوَّةً
فرحوا بها.. وكأنها جَمَلُ![٤]

* * *

العازفون عن الدروس وما
لدروسهمْ عبءٌ ولا ثِقَلُ

---

(١) الأَسَل: حجل المقيّد، وثب في مشية واضطراب.
(٢) أبو بريص: السام أبرص.
(٣) الأوداء: الأودية: جمع الوادي.
(٤) سنونوة: واحدة السنونو: ضرب من الطيور الصغيرة: الخطاف.

كم أَبرمـوا وعـداً أُذاكِـرُهُمْ
بعضَ الدروس به.. وكم مَطَلوا
فـإذا وعـدتهُمُ بتـسليـةٍ
هُرعُـوا إليَّ.. وكلهم عَـجَلُ
المرْهِقـون.. وفي طبـيـعـتـهمْ
سـرٌّ... به الإرهاقُ يُحـتَـمَلُ
يتخاصمون على التوافهِ.. لا
زجْـــرٌ يـردّهُـمُ ولا كلـلُ
في غيبتي.. يتشاكسون.. وقد
يتـشـاجـرون.. وربّما اقـتتلوا
فـإذا ظهـرتُ أمـامَ أعـينهمْ
عـادوا مـلائكةً ومـا مَـهَلوا
وعلى ثيـابِهُمُ دلائلُ مـا
فتكوا.. وما هتكوا... وما فعلوا
لا يخـجلون لِزَلّةٍ عَظُمتْ
فـإذا نظرتُ إليـهمُ خـجلوا
حـتّى إذا عـاقـبْتُ جـائِرَهُم
تـأتي وتذهـبُ بيـننـا الـرُسُلُ
هذي مـلامحُ من عُـرامِـهِمُ
وكـأنهمْ باللّهـو قـد وُكِلُوا

ولهمْ مـــلامحُ في تعـــقُّلِهمْ
حـيناً.. كـأنّ صـغـيـرهـمْ رَجُلُ

*****

كم ليلةٍ.. كـالبرق قد سـربتْ[1]
سـاعـاتهـا.. والبـدرُ مكتـمل
عِشنا بها... في متعةٍ.. سَمَراً
عـذباً.. وطَرْفُ الأُفقِ مكتـحلُ
متـجـمعين.. وللزهور شـذى..
والجوُّ - رغم البَرْدِ - معـتدلُ
نتـبـادلُ الألفـازَ.. نصنَعُـهـا..
نتـذاكـرُ الأنفـاسَ... نرتجلُ
وعـــبـــاءتي عِشٌّ لهم.. ولَكَمْ
مَـزَعوا جـوانبهـا.. وما حَفِلوا
لـكبـــــارهـم وزنٌ إذا اتّكـؤوا
فـوقَ الضلوع.. ومـا لـهم ثِقَلُ
وصغيرُهُم في الحِضنِ يرمُقُني
وله بحِـــضْني تارةً... بَلَلُ
والدرّتان.. وفي دلالهـــمـــا
طُهْـرُ الطفـولـة.. زانه الجَـدَلُ

(١) سريت: مضت سراعاً.

و«مـجـاهـدُ» السـبّـاقُ ملتـصقٌ
بأبيـه.. مهمـا في الهوى عَذَلوا
وأخــوه «أوفى» فـي وداعــتــه
يرنـو.. فـتـجـري بيننـا القُـبَلُ
وأنـا هنـا.. وهنـاك.. بين هـوىً
وجــوىً.. مع الأفكار أنتــقِلُ
هيـهـاتَ يُحـصـي مـا أُكـابدهُ
من همّــهمْ شــعــرٌ ولا زَجَلُ

*****

لولا الهـوى لم يَحـتـمل جَـبَلٌ
أعــبــاءَهم.. ولَزُلْزلَ الجَــبَلُ
كم ذا بَذَلتُ حُـشـاشَـتي لَهُمُ
ووهبـتهمْ روحي.. ومـا بذلوا[1]
وحَـرَمْتُ نفـسي كلَّ مَطلَبِـهـا
وحــبــوتهمْ كلَّ الَّذي سَــألوا
فــهُمُ العــذابُ.. له عُــذوبتُــهُ
وهُمُ النظامُ.. جــمــالُهُ الخَلَلُ
وهُمُ الهمومُ.. تُقِضُّ مضجَعَنا
وهُمُ الغَــدُ المرمــوقُ والأملُ

(١) حشاشي: الحُشاشة: بقية الحياة.

وهُمُ الهناءَةُ والعناءُ معاً
فمُقامُهمْ.. وفِراقُهُمْ.. جَلَلُ
عبءٌ.. وتحملهُ الكواهلُ في
حُبٍّ فلا بَرَمٌ ولا مَلَلُ
رَيْحَانَةُ اللّهِ التي نبتتْ
من غَرْسِنا.. والأمرُ يَتّصلُ
حُكْمُ الإلهِ.. وكلُّه حِكَمٌ
ولكلِّ خَلْقٍ عنده أَجَلُ

جبل الأربعين (سورية)
١٣٨٣ هـ

obeikandl.com